البير كامو : الرجل الطيب

بقلم تشارلس رولو
ترجمة ماهر البطوطي

« تشارلس رولو ناقد وكاتب ، تلقى تعليمه في أكسفورد ، وكان عضوا بارزا في هيئة الاستعلامات البريطانية ابان الحرب . وقد كتب « مهاجمو ونجيت » ، وحرر « عالم ايفيلين وو » . وهو قارىء يتصف ذوقه بالعالمية والتميز » .

* * *

قال (١) الرجل العدمي (٢) للانجليزي : ان حريتي مطلقة، فليس هناك ما يمنعني من أن أضربك على انفك لو أنا رغبت في ذلك . ورد الانجليزي: كلا ... بل هناك ما يمنعك ، فان حريتك تنتهي حيث يبدأ أنفي . وهذه الفكرة ـ أن حرية كل فرد تحدها حرية الافراد الاخرين ـ هي المحور الذي تدور عليه القيم الانسانية التي أخذ البير كامو يعيد احياءها ويعيد المناداة بها فيما يتفق مع القالب الفكري لاوروبا المعاصرة . وقد عرفنا كامو في البداية كروائي له صلة غير واضحة بأدب اليأس الفرنسي، وهو في الوقت الحاضر (٣) الناقد الاول في أوروبا للنظريات التي يجد أساسها ضاربا في أعماق اليأس ، النظريات التي تعتبر الانسان عبدا للمجردات ، مثل التاريخ ، والدولة ، أو الصراع الطبقي.

وقد ولد كامو ونشأ في الجزائر ، « على ضفاف بحر جميل »، ولذلك فهو يقابل الشمال الفرنسي المجنون وشياطينه المنادين بالمطلق، بفكر منطقة البحر الابيض الشمسي ، الافكار الهيلينية عن المقاييس والنسب والابعاد . ويعتبر كامو « نيميسيس » (٤) اكثر الالهة القدماء تثقيفا ، الهة للاعتدال وليست الهة للانتقام . كما يعتقد بأنه « لا يوجد هناك موقف لا يشوبه أي خطأ ما » حتى يحتم على الناس اتباعه ، ويقول في هذا الصدد « كفانا أناسا يموتون من أجل الافكار . ان ما يثير اهتمامي من يعيش ويموت من أجل ما يحبه » .

والبير كامو هو ثاني من يمنح جائزة نوبل في سن الشباب ، فقد حصل عليها « رديارد كبلنج » في الثالثة والاربعين ، وحصل عليها كامو في الرابعة والاربعين . وينتمي كامو الى الجيل الذي « نشأ على دقات طبول الحرب العالمية الاولى ، ولم يكن تاريخه سوى قتل وظلم وعنف ». وقد تعرض المفكرون الاوربيون الذين اتصلوا عن قرب بهذا العصر لمجموعة كبيرة من دواعي الافساد : الفاشية ، الشيوعية، الانهزامية، المشاركية(٥)، القومية الرجعية ، وقليل منهم من خرج منها سالما . وكان البير كامو واحدا من هذه القلة ، فهو يمثل ـ كالمرحوم جورج أورويل ـ نموذجا رنانا للدماثة ، مفكرا للتكامل المتنافر والاستقلال النشط ، وبالاختصار ، انه رجل طيب .

ويكره كامو أن يدعوه أحد قوة أخلاقية ، فهو يمقت ابراز الذات ويرفض أن يعد ضمن الواعظين . وقد قال مرة متأففا انه لو حدث أن اغتصبت جدته في حديقة عامة، لوجد الشخص الذي يدافع عن هذا باعتباره عملا أخلاقيا . وقد اصبح كامو يمثل ضمير عصره في نظر معجبيه العديدين في أنحاء القارة الاوروبية ، رغم ما يمكن أن تثير فيه هذه التسمية من الضيق . وفي خطبة جائزة نوبل ، كرمت الاكاديمية السويدية ، هذه الهيئة المحاذرة ، كامو وهو الملحد جهرا . ولم يقتصر سبب تكريمه له على « انتاجه الادبي الهام » بل ايضا لتنويره « مشكلات الضمير في عصرنا الحاضر » . وقبل ذلك بسنوات ، حين ظهر كتاب « المتمرد » لاول مرة في أوروبا ، كتب سير هربرت ريد يقول « بنشر هذا الكتاب بدأت تنزاح سحابة أثقلت كاهل العقل الاوروبي لاكثر من قرن » .

ومن الدلائل الاخرى على أهمية كامو ، أنه قد نشرت ست دراسات نقدية على الاقل عن اعماله . ويمثل الكتابان اللذان نشرا عنه بالانجليزية ـ « فكر البير كامو وفنه » لتوماس حنا ، و « البير كامو » لفيليب تودي ـ يمثلان عملين تفسيريين رائعين ، لا بد وان يساهما في تفهم اعمال كامو في هذه الناحية من الاطلنطي.

وقد قال لي أحد الروائيين الامريكيين حديثا : « اذا كانت النية قد اتجهت لمنح جائزة نوبل لفرنسي ، فلماذا لم تعط « لمالرو » أو «لسارتر»؟ اني لا استطيع تبين العظمة التي تكمن في كامو » . وليس غريبا ان بعض القراء الامريكيين يتشككون في قدر كامو . فأول الاشياء العظيمة فيه استعماله للغة الفرنسية ، وكثير من الكتاب يفقدونها طلاوتها في الترجمة. ويشكل نثر كامو صعوبات جمة امام المترجم ، بجمعه بين الصفاء والغنائية، وبعاطفيته المقيدة ، وبالانعطافات اللماحة للجمل ، وأمثاله الجذابة، مما يجعل ترجمته اشبه بترجمة الشعر . وقد كانت « جوستين اوبرين » مخلصة للغاية (واكثر من اللازم أحيانا) في ترجمة الكلمات وتركيب العبارات في الاصل ، ولكن لم يسلم الامر من ضياع مسحة من الرونق عند النقل الى اللغة الاجنبية . ورغم ان جميع كتب كامو الهامة قد تم نشرها جميعا بالانجليزية ، فان ستة كتب نثرية ومسرحيتين ـ أي نصف انتاجه تقريبا ـ لم تترجم بعد ، وكلها تكشف مظاهر هامة عن الانسان وعن تفكيره لا نعرفها نحن . ولا يعرف الامريكيون كامو حق المعرفة الا عن طريق رواياته ، واحيانا ما يكون بالغ الابهام في فنه الروائي. وقد فشل أحد النقاد الماهرين في امريكا فشلا تاما في فهم « الغريب » حتى انه حكم على كامو بأنه كاتب غليظ الشعور من نوع « جيمس م. كين » كما ان معظم النقاد يعترفون صراحة انهم يجدون كتابه « السقوط » شيئا أشبه باللغز. وسبب تلك المتاعب ان اعمال كامو الابداعية لا يمكن استيعابها تماما دون التمكن من فكره الفلسفي. وقد عرض هذا الفكر في كتابين نثريين «اسطورة سيزيف» و «المتمرد» ـ وهما ليسا بواسعي الانتشار بين الامريكيين ـ وكذلك في بعض المقالات والافتتاحيات التي لم تترجم بعد الى الانجليزية. وقد تحسس كامو ـ الذي يعتبر نفسه فنانا وليس فيلسوفا ـ تحسس طريقه الى الفلسفة مسترشدا بالانفعالات التي تحكمه كفنان مبدع. ويؤكد «توماس حنا » على صواب في دراسته عن كامو أن « التشابك بين اهتماماته الفلسفية والادبية هو سبب ثراء وقيمة كتاباته الى حد كبير» .

ومثل كثير من كتاب هذا القرن ، تقبل كامو في ألم صورة العالم بدون اله وبدون قيم لها ما يبررها ، وهو العالم كما خلفه لنا تقدم العلوم في القرن التاسع عشر . وقد زاد سخاء الطبيعة والمسرات المادية الثاقبة التي نشأ كامو وسطها من احساسه بعبثية الكون. وقد بدت الشمس والبحر

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة « اطلانطيك » الامريكية عام ١٩٥٨.

(٢) Nihilism : مذهب ينادي بعدم الايمان بأي شيء على الاطلاق ، ويقوض المبادىء والافكار السائدة ، ويترجم أحيانا «النهلستية».

(٣) كتب هذا المقال قبل وفاة البير كامو في حادث سيارة عام ١٩٦٠.

(٤) Nemesis : الهة الانتقام في الاساطير اليونانية القديمة.

(٥) Collaborationism : وتنادي باشتراك المبادىء ووجوب عدم الثبات على واحد منها فقط .

لكامو الشاب دعوة ملحة الى السعادة ، كما يخبرنا بنفسه في كتـــابيه الاولين : « الظهر والوجه » ، و « أفراح » . فالاجساد العارية على الشاطىء، وحسية الرفقاء الشباب الصافية في المراقص ، كل ما يحوطه في الحقيقة كان يمجد الحياة المادية على انها الحقيقة الوحيدة ويعلن قصر أمدها في الوقت نفسه . وقد كتب في العشرينات من عمره يقول : « اني أعلم انلا سعادة هناك فوق المستوى البشري .. ان العالم جميل ، وليس هناك من سبيل للخلاص بعده .. ولا يعني هذا انه لا بد للانسان ان يكون حيوانـا، ولكني لا اجد معنى في سعادة الملائكة » . وقد رفض كامو ــ مخلصا لهذه التجربة ــ أن يبحث عن أي معنى على أي مستوى فوق المستوى البشري. وقد أوجز طلبه في جملة واحدة معبرة : « اني أريد ان اعلم ما اذا كان في استطاعتي أن اعيش على ما اعرفه ، على ما أعرفه فقط » . وان ما يجعل مسلك كامو في هذا الطلب اصيلا للغاية هو ــ كما قال « فيليـــب تودي » في فطنة ــ امتلاكه لاحساسات الرجل العادي وعقل المفكر. وفي احساساته ولع متميز بالاخرين ، وفي عقله سورة شاذة غير طبيعية نحو الصفـــاء .

وحين بلغ كامو أشده ، كانت روح عصره قد تحدرت الى بـراثن اليأس . وفي السنوات التي تلت ذلك ، عاش في « عدمية ، وتضاد، في عنف ودمار طائش » . لقد كان يشارك الشعور السائد بأن الانسان يحيا في منفى روحي وسط عالم عدائي . ولذلك وجد انه من الضروري ان يخلق بيديه الاساس المنطقي الخاص به للاخلاق التي تجري في دمه . وقد قال « ان من السهل على المرء أن يكون منطقيا ، غير انه من المستحيل عليه ان يكون منطقيا على طول الخط الى النهاية » . وحين يتمسك كامو بالمنطق على طول الخط الى النهاية ، يصور ــ في اكثر اشكاله مغالاة ــ استحالة تبرير القيم الاخلاقية . وعلى هذا الاساس من الشك المنهجي ، شرع في اقامة مذهب انساني خاص به ، شبيه بالتقليد الانساني القديم الذي ذهب.

وكامو فنان يشوب رواياته ومسرحياته عنصر شخصي قوي ، رغم انه مشتبك في مشكلات عصره المحيرة . وقد حذرنا من التعرف عليه في شخصيات ابطاله ، أو اعتبار محاجاتهم نصا حرفيا لافكاره . وقد كتب في مقال نشر في مجلة « اطلانطيك » : « اني لست رساما للعبث .. لم أفعل سوى ان عكست فكرة وجدتها ذائعة في الطرقات . اما انني قد ساندت هذه الفكرة كبقية الجيل الذي عشت فيه ، فهذا شيء طبيعي . غير انـني قد احتفظت بنفسي على بعد من هذا الموضوع حتى يكون في امكاني معالجته وتقرير منطقيته ... غالبا ما يحدث ان يتتبع الانسان تاريخ اشـــواقه وتجاربه ــ ولكنه لا يتتبع تاريخ حياته الذاتية على الاطلاق » . ويمدنـا كامو هنا بمفتاح هام لتفهم اعماله . ويمكن وصف طريقته كفنان بالطريقة التجريبية ، مثله في ذلك مثل « اندريه جيد » ، فهو يتناول فكرة ما (تمثل عنده عنصرا من الشوق او التجربة) ويسير بها ــ عن طريق الروايـــة او المسرحية ــ الى نهايتها المنطقية ، ويترك للقارىء الحكم عليها بما تجره من نتائج . وهكذا يستبين في خلق كامو الادبي كلـــه نمط استكشافي وتطوري محدد . ويمكن تصوير هذه الفكرة على احســـن الحالات بتقديم تاريخ حياته مع تقدمه الفني.

ولد البير كامو في مدينة « موندوفي » الجزائرية في ٧ نوفمبر ١٩١٣ عن أم اسبانية وأب « الساشي » يعمل في الزراعة ، وقد قتل في معركة «مارني» . وقد كتب كامو في كتابه الاول يقول : « لم يكن الفقر كارثة بالنسبة لي ، فقد كان يوازنه دائما غنى النور ... وقد ساعدتني الظروف . وفي محاولتي لتصحيح عدم الاكتراث الطبيعي الذي اتصـفبه، وضعت نفسي في منتصف الطريق بين الشقاء والشمس . وقد منعني الشقاء من الاعتقاد بان كل شيء سليم تحت الشمس ، وعلمتني الشمس ان التاريخ ليس كل شيء » . وقد ظل كامو على ارتباطه القوي بنشأته الاولى: بشمال افريقيا عالم المظلومين اجتماعيا ، وبأسبانيا بلد والدته ، وقد شعر بنفسه مستغرقا لاذنيه في الحرب الاهلية الاسبانية ، وبعدها بمدة طويلة ، في عام ١٩٥٢ ، استقال من « منظمة اليونسكو » (٦) احتجاجا على قبول دكتاتورية

(٦) منظمة التربية والعلوم والثقافة التابعة للامم المتحدة .

البير كامو

«فرانكو».

وقد ساعد احد المدرسين كامو في الحصول على منحة دراسيـة في المدارس الثانوية . وقد مول كامو تعليمه الجـــامعي باشتغاله بكثير من الاعمال المختلفة ، فقد عمل في ختم رخص القيادة في الولاية ، وفي ملاحظة الضغط البارومتري في معهد الارصاد الجوية، وفي بيـــع قطع غيـار السيارات ، وعمل مع احد سماسرة السفن وقاده احد اعلانات الصحف الى المسرح ، وهو ما كان مقدرا له ان يكون من اعظم اهتماماته في الحياة. وتقدم ليشغل وظيفة البطل في احدى الفرق المسرحية الجوالة وحصل عليها ، وتجول طيلة اسبوعين متواصلين في انحـــاء الجزائر لتمثيـل المسرحيات الفرنسية الكلاسية . وبعد أن دعم نفسه بهذه التجربة، كون فرقته المسرحية الخاصة المسماة « لو اكيب L'EQUIPE » ، وأعد «الاخوة كرامازوف » (٧) و « بروميثيوس مقيدا » (٨) للمسرح . وكان قد كتب في هذا الحين اربع مسرحيات ، وترجم وأعد للمســـرح كتبـــا من تأليف «كالدرون» ، « لوب دي فيجا » و « وليام فوكنر » ، وقد مثلت مسرحيتـه لرواية فوكنر « قداس الراهبة » مدة ثلاثمائة ليلة في باريس . ويقوم كامو عادة باخراج مسرحياته وما يعده للمسرح من روايات ، كما يجد متـعته في مشاركة الممثلين في بروفاتهم . وفي احدى المرات، حين أصيب احد ممثلي « قداس الراهبة » في حادثة قام كامو بتمثيل الدور بنفسه . وقد مثلت مسرحياته كلها في باريس ، ولكن لم تثبت فاعلية أي منها على المسرح سوى واحدة وهي « كاليجولا » . وقد اشتكى النقاد أن مسرحيات كـامو مشحونة « بالذكاء اكثر من اللازم » ، وانها تضحي « بجمال » العرض في سبيل المضمون .

وهناك صفة موروثة أخرى ظاهرة في شباب كامو وهي حماسه لكـرة القدم ، وهي الرياضة التي مارسها كثيرا من السنين ، وظل يتردد عـــلى مباريات الكرة في أيام الاحاد ، وهو يعتقد أن قوانين الرياضي الجيد دروس طيبة في دماثة الخلق . وقد قال مرة : « اني لم أتعلم دروس الاخلاق الا في ميدان اللعب » .

وحين كان كامو في جامعة الجزائر ، هاجمه مرض السل بشدة ، ورغم ذلك اكمل تعليمه وحصل على الماجستير برسالة عن العلاقة بـــين الهيلينية والمسيحية . وكان كتابه الاول الذي كتب بلغة الجوالين، نتاج رحلاته الى ايطاليا والنمسا وتشيكوسلوفاكيا . وقد تبعه سريعا كتـابه «أفراح» وهو مقالات عن عالم البحر الابيض الذي سبقت الاشارة الى

(٧) Brothers Karamazov تأليف فيودور دستويفسكي .

(٨) Prometheous Bound تأليف ايسخيلوس .

موضوعاته . وشغل كامو في بداية الحرب (٩) في الدفاع عن حقوق العرب في صحافة الجزائر . وذهب الى باريس عام ١٩٤٠ ، وأنشأ بعدها الصحيفة السرية « كومبا » التي أصبحت على رأس أصوات حركة المقاومة الفرنسية . وفي هذه الاثناء ، في عام ١٩٤٢ ، كان «جاليمار» قد نشر الكتابين اللذين كان لهما الفضل في شهرة كامو : « الغريب »، و « أسطورة سيزيف » . ويمثل هذان العملان ، بالاضافة الى «كاليجولا» ومسرحية اخرى تسمى « سوء تفاهم » (كتبت حوالي سنة ١٩٣٨ وسنة ١٩٤٢) ، تمثل جانبا من أعمال كامو يمكن ايجازه بأنه استكشاف العبث.

ويبدأ تحليل كامو للعبث بملاحظة أن الانسان يجد من السهل على نفسه عادة قبول الروتين اليومي ، ولكن يحدث أن تبرز امامه في أحد الايام كلمة « لماذا » ؟ ، يبرز سؤال عما اذا كان للحياة أي معنى . يجد المرء نفسه « في كون خال من النور ومن صور الوهم .. مجرد اجنبي غريب». وتبدو الطبيعة ، بل الاشخاص الاخرين ـ يبدون أعداء ولا انسانيين. وتتخذ الحركات العادية ، حركات شفتي احد الرجال بلا صوت وراء الباب الزجاجي لكابين تليفون ، تتخذ مظهر « الايماءات التي لا معنى لها ». ثم يملأ النفس في النهاية احساس مرعب بالموت كيقين حسابي . ومصدر هذا الانهيار ان العقلاني لا يتمكن من ارضاء « اشتياق الانسان الوحشي » للمعنى في عالم لا عقلاني ، « ولا يوجد شيء هناك وراء العقل ». اذن فالعبث هو نتيجة التفكير في « الحالة الانسانية » . والعبث هو كل هذه الاشياء : استحالة التوفيق بين الموت والرغبة في الخلود ، بين الشقاء والرغبة في السعادة ، بين الانفصالية والرغبة في التوحد ، بين الفاز الوجود جميعه والرغبة في الوضوح . وقد لمس « مالرو » و « سارتر » وآخرون خط الفكر هذا قبل كامو ، ولكن أصالته تكمن في أنه اول من وجد أن عبثية العالم ليست سببا لليأس ، بل على العكس ، حافزا للسعادة. وفي رأيه أن الموت والمعاناة (١٠) التي لا سبب لها ـ وهي أكثر ما يشغل باله من موضوعات ـ ترفع في الواقع من قيمة الحياة ، فهي تدعو الانسان الى عيشها بكثافة أشد .

وقد رفض كامو كذلك أن يقبل الاستنتاج العدمي الذي ينادي بأنه لما كان العالم لاعقلانيا ، تكون اللاعقلانية هي المبدأ المنطقي الوحيد للسلوك، وهذا هو موضوع مسرحيته كاليجولا . فحين يكتشف الامبراطور أن العالم عبث ، يتصور أن بامكانه تغييره الى الافضل بأن يصبح داعية للعبثية المطلقة ، ويبدأ في حكمه الهوائي المرعب واخلاقياته الهدامة ، يجزي المجرمين والمفسدين ويعاقب الابرياء . وما يعطي المسرحية توترها المثير للقلق ان كاليجولا ـ بوسائله المخيفة هذه ـ يوقظ حقيقة عبثية الحياة في صدر اتباعه . ولم يتمكن كامو في هذه المرحلة من اعماله ان يثير أي قيم يمكن ادانة كاليجولا بها . وعلى الرغم من ذلك ، يطيح بكاليجولا تمرد جاء نتيجة الاقرار الغريزي بأن سلوكه قد «فاق» عبثية الحياة .

وفي كل من « كاليجولا » و « سوء تفاهم » : أكثر اعمال كامو كآبة، تسود روح من التمرد ضد مظاهر عبثية العالم . وفي « الغريب » يتوجه التمرد ضد المقاييس التي أقامها الانسان للاخلاقية المطلقة . وقد كتبت هذه الرواية القصيرة بأسلوب يبدو فيه أثر « همنجواي » في أول كتاباته، فكل جملة مفردة تشكل كلا مطويا في نفسه ، ونتيجته تصوير الحياة كاحساسات متتابعة لا معنى وراءها . وهدف كامو من ذلك هو استبلاد « شعور » بالعبثية في نفوسنا : فما من شيء يقدم تقريرا له .

وبطل الغريب ـ ميرسو ـ موظف بأحد المكاتب الجزائرية . وهو رجل لا يكترث بأي شيء على الاطلاق سوى احساساته المادية الفورية، فالعبثية في دمه دون ان يشعر بها . ولا يشكل موت امه ، او تقديم علاوة له ، أو حب الفتاة التي برفقته ، لا يشكل ذلك « أي اهتمام » بالنسبة له. ومع الوقت ، يساق الى موقف يقتل فيه ـ وقد بهر عينيه توهج ضوء الشمس ـ أحد الاعراب الذي بدا كأنما يهدده بمديته . ويؤكد محاميه امكان حصوله على حكم بالبراءة لو قبل أن يدلل بحالة الدفاع عن النفس ويعبر عن الاحساسات المناسبة في هذه الحالة . ولكن ميرسو يعجز عن التظاهر باحساسات يشعر بها حقا . وقد أظهرته صراحته التامة أثناء المحاكمة بمظهر الوحش ، فحكم عليه بالموت على المقصلة . ويؤدي به الاقتراب من الموت الى شعوره بما سبق أن آمن به دون دليل : الحياة لا معنى لها . وبعد أن « يخلو من كل أمل » يتحقق أنه كان سعيدا ، وانه « ما زال سعيدا! » . وميرسو شخصية بعيدة عن الواقع ، ويصبح احيانا شخصية لا تطاق ، ولكن الرقة الساخرة التي صوره بها كامو بدقة تكسب عطفنا .

وهي قطعة قصصية ممتازة، لكل تفصيل تأثير فيها. و «الغريب» تسخر من العقيدة القائلة بأنه يمكن الحكم على السلوك الانساني تبعا لمقاييس اخلاقية ثابتة. وليس قتل الاعرابي هو ما يدين « ميرسو »، ولكنه اتهم لانه كان غريبا على المطلقات الاخلاقية التي تؤمن بها المحكمة، وهذا الدليل يؤدي الى اتهام بني الانسان جميعا .

وتشبّه أسطورة سيزيف مصير الانسان بمصير بطل الاسطورة ، الذي حكم عليه الى الابد بأن يدفع حجرا هائلا الى أعلى الجبل مع يقينه بأنه سيتدحرج ثانية الى اسفل . وقد اعلن كامو في بداية الكتاب انه « لا توجد الا مشكلة فلسفية جادة واحدة، وهي الانتحار » . ويجد الجواب على هذه المشكلة في موقف سيزيف الذي يواجه حالته دون خداع للنفس ولكن دون يأس ، ويتفلسف على العبثية عن طريق التحدي المتمرد الذي يجلب معه الالم والحرية . وينتهي المقال بأن « الكفاح نحو الذرى كفيل بأن يملأ قلب الانسان . ولا بد أن نتصور المرء سيزيف سعيدا بذلك ».

ومعالجة كامو لهذه الاسطورة هي صورة مبدئية لمذهب في التمرد الميتافيزيقي المتأصل في روح الانسان العادي ، الذي يقوي نفسه في وجه مصيره دائما وفي كل مكان بعلاج « لا يتناوله المريض وهو راقد » . وقد قال كامو في مقدمة الطبعة الامريكية من « سيزيف » والتي لم تظهر الا عام ١٩٥٥ : « هذا الكتاب ، الذي وضع عام ١٩٤٠ ، أثناء الكارثة الفرنسية والاوروبية يعلن انه في الامكان التقدم الى ما وراء العدمية ، حتى في نطاق ابعاد العدمية الخاصة » .

وكانت الخطيئة الكبرى عند كامو دائما هي اليأس ، وقد بحث هذه النقطة في « خطابات الى صديق الماني » ، وهي خطابات موجهة الى صديق الماني متخيل ، نشرت اصلا عن طريق المطبعة السرية ، وتعرض وجهة النظر التي غذتها تجاريب كامو في المقاومة، ان بني الانسان بتمردهم على الظلم يثبتون ان هناك قيمة ما تجمعهم معا ، ويقيمون بهذا « التضامن » الانساني. وقد تحولت هذه النظرة الى عمل درامي في « الطاعون » .

ورواية كامو الرئيسية حتى الان ـ « الطاعون » ـ تصف وباء يجتاح مدينة وهران . وهي أليجورية (١١) عن مصير الانسان : « الطاعون .. هو الحياة » . وتصور كل شخصية في الرواية طريقة استجابة معينة لمشكلة الشقاء والشر . فالطبيب « ريو » (الذي لا نكتشف انه هو راوية القصة الا في النهاية ، فكامو يحب بعض اللمسات من الغموض) يكرس كل طاقاته لمحاربة الوباء ، وكذلك يفعل « تارو » وهو من الثوار السابقين ، وترهص قواه الادراكية بما سيجيء من نقد للعنف في كتاب « المتمرد » . وتصور بعض الشخصيات الاخرى كيف تساعد الراحة البورجوازية على التعذيب الاقتصاصي وتحرض عليه . وهناك احد المناظر يرفض فيه التسليم المسيحي بالمعاناة على انها تكفير عن الذنوب، وفي هذا المنظر يهاجم « ريو » الاب « بانيلو » ـ بعد ان رأى طفلا يتعذب ويموت بسبب الطاعون ـ لانه كان يبشر بالاذعان لارادة الله .

ومع ذلك يعترف ريو أنه في صف واحد مع القس ، صف «الضحايا»، وقد قال كامو أن اكثر ما يشغل باله هو : كيف يسلك الانسان في حياته؟ ويتضح جوابه عن هذا السؤال ـ هذا الجواب الذي سيبقى كما هو فيما بعد ـ في رواية الطاعون : اننا لا يمكننا التأكد من فعلنا للخير ، ولكن

(٩) يقصد الحرب العالمية الثانية .

(١٠) Suffering

(١١) Allegory : نوع من الكتابة الادبية انتشر ابان القرون الوسطى يستخدم الكاتب فيه مجردات ورموزا ليعبر بها عن غرضه.

نستطيع أن نكون على حذر دائما ألا نفعل شيئا يزيد في المعاناة . ويتضمن هذا ايضا التسامح مع آي شيء سوى المعاناة نفسها . وتتسم رواية الطاعون بمزاج لا بطولي ، « فريو » و « تارو » ـ حين يعرضان نفسيهما لمخاطر جريئة ، ليسا سوى « منطقتين » ، فقد أدركا أن مقاومة التعذيب الاقتصاصي هو مهمة كل شخص . والرجل الذي يشار اليه في احد اجزاء القصة على انه بطل الرواية هو موظف صغير بالبلدية يسجل احصائيات الوباء ويمضي وقت فراغه بلا انقطاع في كتابة الجملة الاولى لرواية يؤلفها . ومن خلال هذه الشخصية البلهاء الى حد ما (واسمه « العظيم ») ، وهذه احدى الاشياء الساخرة الايحائية التي يحفل بها هذا العمل الفني) يعبر كامو عن حبه واحترامه للانسان العادي ، الذي لا يضر أحدا بشذوذه ، والذي يجعل منه اخلاصه في العمل سيزيف اخر صامتا لا يسمع به أحد .

ومن الواضح ان الطاعون تحمل رسالة ما ، مما لا يساعد على احتسابها رائعة فنية ، ولكن من المؤكد انها واحدة من أهم واجود ست روايات نشرت منذ الحرب العالمية الثانية . وقد جاءت كتابتها رشيقة حية ونغماتها القصصية مستحوذة للانتباه ، وهي مزج فريد بين عواطف الفضول والانفعالات والتهكم الساخر . وتنتقل توجيهات الرواية الاخلاقية من خلال بلاغة رصينة .

وسبق كتاب المتمرد مسرحية مقتبسة من « الطاعون » بعنوان «حالة حصار » ومسرحية أخرى هي « العادلون » . ويعتبر كتاب المتمرد تبيان كامو الكامل لمذهب التمرد الميتافيزيقي وتطبيقاته في السياسة والفن ، وكان قد خلف وراءه مرحلة التمرد العقيم ـ المنعزل الى حد ما ـ لدى سيزيف ، الى اثبات انه عن طريق التمرد (في وجه الطغيان او مجرد القدر) يخرج الانسان من عزلته الروحية ويصل الى الاحساس بالوحدة والمعنى ، هذا الاحساس الذي تنكره عبثية العالم عليه . ويستنتج كامو من هذا ان الانسان بطبيعته « حيوان متمرد » : « المخلوق الوحيد الذي يرفض ان يكون على ما هو عليه » ـ وهذا التمرد الميتافيزيقي متجانس مع الحرية والابداعية . وان اعلى مثل على المتمرد الميتافيزيقي هو الفنان الخلاق ، فهو مشغول دائما بمواجهة العبثية ـ والعالم هو مادته الخام الذي يصوغها ـ وبالتمرد على هذه العبثية عن طريق فرض الشكل الفني المنظم .

وقد شرع كامو عن طريق تحليله السياسي عن السبب الذي أدى بالتمردات التي حدثت في مدى قرن من الزمان الى خلق انواع من الطغيان وتبريرات للطغيان أشد ضراوة من الشرور الاصلية التي قام التمرد لمحاربتها . وكان من تفسيرات كامو لذلك الموقف ان « هيجل » وغيره من دعاة المثالية المطلقة حولوا روح التمرد الى عكسها ، الى روح الثورة . والتمرد هو الاحتجاج ضد القوة المطلقة وغايته المعتدلة هي التقليل من مقدار المعاناة . اما الثورة فتسعى في طلب القوة المطلقة ، وهي تطالب بالحرية المطلقة في انزال المعاناة والشقاء حتى تتمكن من الوصول الى غاياتها المتطرفة . وتتطلب روح التمرد أن يحتفظ كل انسان بحريته في التمرد . ولن تحلل تلك الروح مظاهر العنف في أي ظرف من الظروف . واذا اضطر المتمرد الى القتل فيجب عليه ـ حتى لو كان من قتله طاغية ـ ان يرضى بالموت حتى يقيم البرهان على ان القتل واحد من الحدود الذي لا يمكن تجاوزها سوى مرة واحدة .

ويتردد في المقال صدى الاعتقاد بأن الانسان لا يمكن أن يحيا على مجردات مستخلصة من التأمل في التاريخ ، فالنظريات تعمل على الافساد ، والنظريات المطلقة تعمل على الافساد ايضا ، وليس التاريخ الذي يسكر الناس بالاحلام هو المبحث الصحيح للانسان ، بل هي الطبيعة التي تعيد اليهم اتزانهم بتنبيههم الى الحدود التي يقفون عندها . وما امراض عالم اليوم السياسية الا النتيجة المنطقية لطوبية يائسة تجد الاخطاء تسود الدنيا بطريقة مخيفة حتى انها تجفل ـ لا عن خوف ـ عن أي محاولة لتغييرها ، وتعمى عن حقيقة انه لا يوجد أي شيء يستطيع تحويل العالم الى جنة أرضية . ولما كان كتاب المتمرد يقف بشدة ضد روح الاستسلام ، وتتشبع سطوره بروح التمرد ، فانه يعد بمثابة تصريح فريد مثير لفلسفة الاعتدال .

وبعد فترة من نشر « المتمرد » ، حدثت جفوة بين سارتر وكامو ، وكانا قد أصبحا صديقين خلال الحرب . فعلى الرغم من ان سارتر كان يؤكد اختلافه عن الشيوعيين ، فقد وقف فترة من الزمن في صف مواز لهم في كثير من القضايا ، ومنها الفكرة التي تقول باجرامية توجيه النقد الى روسيا . وقد نشرت صحيفة « الازمنة » هجوما على كتاب المتمرد ، كتبه تلميذ من حواريي سارتر ، وقد أيده سارتر في ذلك فيما بعد . وقد قالا عن كامو انه هروبي ، لا يستطيع المجازفة بتلويث طهارته بالاتصال بالتاريخ ، واتهماه بمساعدة الرجعيين والعمل في سبيل راحتهم . وقد اجاب كامو على ذلك بأن الوجوديين يدعون انهم يمجدون الحرية ، وهم « اليوم يمجدون العبودية ... (فاتلين) آن الشيئين واحد ، وهذا غير صحيح ». وكان يضيف على ذلك لاصفيائه : « لقد كانوا يبدون لي دائما مثل كوكب المريخ » . وكانت الجفوة بين كامو وسارتر عنيفة ومريرة ، وهما لا يتقابلان الان على الاطلاق .

وتعد الطبيعة التي تبدو في اعداء كامو مقياسا لدماثته : فقد تعرض لهجوم انصار حكومة فيشي (١٢) والرجعيين الاخرين ، كما هاجمه أيضا اليساريون واتباعهم . ومع ذلك فقد ذكر بعض النقاد المسؤولين انه من السهل العثور على متناقضات واغفالات مزعجة في تفكيره ، فمثلا هو لم يشر الى الثورة الامريكية ـ التي لم يعقبها أي نوع من الطغيان ـ في بحثه عن الثورات ، كما انه من الصعب ان نعادل رفضه جواز القتل في أي ظرف من الظروف مع قوله : « انني لست بالمسالم » . ومن الاعتراضات الاخرى عليه ، ان فلسفته للحدث السياسي قد تصلح ميثاقا للصليب الاحمر الدولي ، ولكن مجال تطبيقها في محيط السياسة ضئيل ، هذا المحيط الذي يندر ان يسمح بوجود اختيار واضح بين العمل على زيادة المعاناة أو العمل على التقليل منها . ويستطيع كامو ان يدفع بحق الانتقاد الاول بايضاح انه لم يدع قط انه مفكر منهجي ، والانتقاد الثاني بالقول (كما فعل في « الطاعون ») أنه يوجد في الوضع الراهن للمشكلات الدولية جانب يتمثل في « عدم اتخاذ أي جانب » .

انقضت تسع سنوات بين « الطاعون » وبين الرواية التالية لكامو : السقوط (١٩٥٦) ، التي وجدها القراء أشد كتبه غموضا ، وهو كتاب كامو الوحيد الذي اتخذ له الشمال «أمستردام» مكانا للحوادث . وهو يحكي اعترافات محام باريسي ويعرضها عرضا رائعا كقصة فلسفية مثيرة . وقد عبّر راوية القصة أزمة روحية بأن صار ما يسميه « قاضيا تائبا » ، واستعاد احساسه بالرفعة ، وهو يتمكن من اشباع حاجته الى السيطرة على الاخرين باعترافه هنا وهناك بأنه أحقر الحقراء ، دافعا سامعيه بهذا الى الحكم على انفسهم وتحقيرهم لها . وقد وصف كامو رواية القصة : «جين باتيست كليمنس » (يوحنا المعمدان ـ الصوت الداوي) وصفه بأنه «بطل عصرنا » . وقد قال في اجماله لهذه الرواية : « لم يعد الاوروبيون بمؤمنين ، فهم اما لا أدريون (١٣) أو كافرون (ولست أعارض في ذلك ، فانني وثني تقريبا) ولكنهم لم يتخلصوا من شعورهم بالذنب ، ولا يمكنهم التخلص من هذا الحمل عن طريق الاعتراف الديني ، ولهذا يشعرون بالحاجة الى التصرف ، فيعمدون الى اصدار احكام قاسية على الناس ، ويضعونهم في معسكرات الاعتقال ، ويقتلونهم . و « بطلي » هذا هو التصوير الدقيق لاحد الضمائر المذنبة ، فهو يذعن للشعور بالذنب بذلك التسليم الاوروبي . وهو يقصد بالسقوط ، العنوان ، الفشل في التمرد ،

---

(١٢) حكومة فرنسية شكلها المارشال بيتان الفرنسي داخل فرنسا ، ابان الاحتلال النازي ، وكانت متعاونة مع النازيين .

(١٣) Agnotiscs ويناد ون بأنهم لا يدرون ان كان هناك اله أم لا ، وأنه لا سبيل الى التأكد من أي من هذين الرأيين .

وهذا ما يجعل من كليمينس بذرة فساد . ولما كان كامو نفسه قد حذر من أي تفسير بسيط للرواية فمن المحتمل ان يكون مقصده هو ـ رغم انعزاله الساخر ـ التعبير عن « أشواقه وتجاربه » التي عرفها من قبل.

وكتابه الاخير ، المنفى والمملكة ، مجموعة من ست قصص تتنوع تنوعا مدهشا في أسلوبها وموضوعاتها ، ولكن يربط بينها منهج عام ، فجميعها يهتم بطريقة ما باحساس الانسان بالنفي والحنين الى الوحدة . وقصة « المارق » تعبر عن عبادة القوة ، التي تجعل الانسان يتحول ناحيةالفلسفات العدمية ، وقد قدمها المؤلف على شكل مونولوج مرعب لرجل يموت، وهو واحد من المبشرين ممن يعبدون القوة، خرج في سبيل هدايةبعض البرابرة المتوحشين ، ثم اصبح العبد الذليل لصنمهم بعد أن استعذب العذاب الذي كان ينزل به باسم هذا الصنم . وتعكس قصة « الضيف » احساسات كامو تجاه المشكلة الجزائرية ، وفيها يحاول أحد المدرسين الذين يمثلون المظهر المتمدين الانساني للادارة الفرنسية ، وهو يحب الجزائر ويشعر بانتمائه اليها ـ يحاول بلا فائدة انقاذ أحد الاعرابيين من الوقوع فيأيدي الشرطة . ولكن يؤدي الجو السائد الى اساءة فهم محاولته هذه ، حتى ان رفاق الاعرابي يعلنون عزمهم على الانتقام منه . وتسجل قصة «فنان يعمل » بطريقة مسلية عملية الافساد التدريجي لرسام كرس نفسه لمهنته ، بعد ان هاجمه التطفل والتشتت الذي يصاحب النجاح عادة ، وترمي الى تبيان انه عن طريق العزلة يصل الفنان الى التضامن مع عصره الذييعيش فيه ، ويعتبر هذا الرأي بمثابة لطمة على اصرار « سارتر » على فكرة « الالتزام » .

ويعيش كامو الان في باريس ، في احدى الشقق بالقرب من حدائق لكسمبرج . وهو يكتب في الصباح ، اما واقفا الى جانب مكتب قائم، او مستلقيا . ويعمل بعد الظهيرة عند جاليمار كمحرر لسلسلة كتب تقدم الكتاب الناشئين . وهو متزوج (من عازفة بيانو) وله توأمين فتى وفتاة.

وكامو ـ مثل فوكنر ـ يكره التطفل على خلوته ، ويرفض ان يعامله احد كمشاهير الناس او ان يلعب الدور الاجتماعي المتوقع من قائد فكري في باريس . ويقول عن باريس انها مكان غير طيب بالنسبة للفنان لانها خشبة مسرح تفرض عليه ان يتكلف وضعا معينا . ومع ان الباحثين عن المشاهير والفضوليين لا يتمكنون من الوصول الى كامو ، فانه يرحب بالزوار القادمين من الجزائر ، ويفتح بابه للطلبة .

وهو رجل متوسط الطول ، نحيف ، اسمر ، عضلي ، يمتلك حيوية حادة مكبوحة، وهذا يعطيه مظهرا خارجيا يتسم بالهدوء . وهو قادر علىان يظل صامتا وسط مجموعة من الناس مدة طويلة ، كما يستطيع ان يملأ غرفة مزدحمة بالناس بمرحه وسحره . ويعطيه معطفه العسكري المتهدل دوما ، وسيجارته المتدلية من ركن فمه مظهرا بروليتاريا ، مما يتمشىمع مشاركاته الوجدانية .

وكانت الحادثة التي أثرت اكثر ما أثرتفي كامو منذ الحرب هيالتمرد المجري، فقد «أطاح بأكبر أكذوبة في القرن، ونثرها في الرياح» ـ وستكون هذه الحادثة النقطة الختامية في الرواية التي بدأ كتابتها ، وتحكي قصة أحد الاشخاص ، وقد اختار لها عنوانا مبدئيا « الانسان الاول » ويستبين منها اماالا كبارا . وعلى الرغم من صغر سن كامو النسبي ، فقد توصل الى بعض المآثر الحسنة كفنان ، أما بالنسبة الى كونه مفكرا ، فقد ضرب شوطا بعيدا في هذا الميدان .

وقد صارع كامو العدمية طويلا بضراوة ، ولا يمكن اتهامه بالتفاؤل الطبع حين يقول : « هناك في الانسان اشياء تدعو للاعجاب اكثر مما تدعو للاحتقار » ، او حين يتحدث عن الامل في « نهضة » اوروبية ، او حين يعلن : « في وسط الشتاء ، اكتشفت أن هناك صيفا لا يقهر في نفسي ».

لقد عثر ألبير كامو على صوته الحقيقي.

القاهرة — ترجمة : ماهر البطوطي

دار الكاتب العربي
للتأليف والترجمة والنشر
بيروت - بناية عمر الخيام - ص.ب ٣١٥٧
هاتف ٢٩١١١٨ - ٢٤٠٥٠٦ - ٢٤٠٥٠٧

اكتشاف جزيرة العرب

خمسة قرون من المغامرة والعلم

تأليف : جاكلين بيرين

نقله الى العربية قدري قلعجي

* * *

الرحالة الغربيون الذين حاولوا اكتشافجزيرة العرب في القرون الخمسة الاخيرة ، واعطاء فكرة واضحة عنها لاوروبة ، التي كانت تجهل عن بلادنا كل شيء ، سواء منهم المغامرون الذين قدموا الى البلاد العربية حبا بالمخاطرة وبحثا عن المجهول ، او العلماء الرواد الذين خاطروا بحياتهم في سبيل الكشف العلمي والبحث عن الحقيقة ..

جميع هؤلاء الرحالة ، من مغامرين افاقين وعلماء مخلصين ، جمعتهم البحاثة الفرنسية جاكلين بيرين بين دفتي هذا الكتاب الرائع ، لتروي قصصهم الشيقة ، وتسجل ما قدموه من خدمات في حقل المعرفة البشرية، واكتشاف المناطق المجهولة والاقوام التي تقطنها ، منتقلة معهم في المكان والزمان ، مبينة الدوافع الحقيقية لرحلاتهم ، والنتائج الفعلية التي افضت اليها ، دون ان تتردد في هتك الستار عن كذب المفترين وخداع الدجالين ، او في الانحناء امام الرواد الصادقين الذين تكبدوا المشقات وجابهوا الاخطار في سبيل رسالتهم العلمية النبيلة .

وهكذا جاء هذاالكتاب الممتع ، مرجعا فريدا في الجغرافية البشرية لمنطقة ما تزال مجهولة حتى لدى الباحثين العرب ، وتاريخا حيا ينتقل بالقارىء عبر خمسة قرون ، من بلاد اليمن وعسير وحضرموت ، الى عمان ومسقط ، الى نجد ومعان وبادية الشام ، ومن آثار سبنا ذات الاسرار الى اثار بترا الخبيئة في قلب الجبال .

ويزيد في قيمة الكتاب المقدمة القيمة التي وضعها للترجمة العربيه العلامة الشيخ حمد الجاسر ومساهمته في ضبط اعلامه وكتابة هوامشه .